# المحاضرة الرابعة

## 1. ما هي النظرية النقدية؟

طرح هوركهايمر سؤالًا في افتتاح مقاله "النظرية التقليدية والنظرية النقدية" [1937]: "ما المقصود بالنظرية؟". لطالما كان النقاش حول المنهج موضوعًا ثابتًا بالنسبة لمنظري النظرية النقدية الذين سعوا منذ البداية إلى توضيح خصوصية مفهوم "الانتقاد."

حدد هوركهايمر تمييزًا رئيسيًا واسعًا، ألا وهو الفرق في المنهج بين النظريات الاجتماعية والنظريات العلمية والنظريات الاجتماعية النقدية. في حين تم التعامل مع الفئتين الأوليين كحالات من النظريات التقليدية، فإن الأخيرة تشير إلى المنهج الذي تبنته مدرسة فرانكفورت.

لطالما ركزت النظرية التقليدية، سواء أكانت استنتاجية أم تحليلية، على التماسك وعلى الفصل الصارم بين النظرية والممارسة. وعلى نهج كارتيزي، تم التعامل مع المعرفة على أنها مبنية على قضايا بديهية أو على الأقل على قضايا مبنية على حقائق بديهية. وبناءً على ذلك، شرعت النظرية التقليدية في شرح الحقائق من خلال تطبيق قوانين كلية، أي عن طريق إخضاع أمر معين لأمر كلي إما لتأكيده أو دحضه. كان هذا الإجراء التحققي من هذا النوع هو ما اعتبره الوضعيون أفضل تفسير توضيحي لمفهوم الممارسة في البحث العلمي. إذا كان المرء يدافع عن الرؤية التي تقضي بأن الحقائق العلمية يجب أن تمر باختبار التأكيد التجريبي، فعندئذ يكون المرء قد التزم بفكرة عالم موضوعي. ستكون المعرفة ببساطة مرآة للواقع. هذا الرأي مرفوض رفضًا قاطعًا من قبل المنظرين النقديين.

في عدة جوانب، ما تسعى النظرية النقدية إلى رفضه في النظرية التقليدية هو بالضبط هذه "نظرية الصورة" للغة والمعرفة كما حددها "فيتجنتشتاين الأول" في كتابه "منطق فلسفي". وفقًا لمثل هذه النظرة، التي تخلى عنها فيما بعد "فيتجنتشتاين الثاني"، فإن الشكل المنطقي للقضايا يكمن في إظهار حقيقة ممكنة وفي قول ما إذا كانت هذه الحقيقة صحيحة أم خاطئة. على سبيل المثال، يُظهر القول "يمطر اليوم" إمكانية حدوث حقيقة "أن يمطر اليوم" ويؤكد أنه من الحالات التي "تمطر فيها اليوم". من أجل التحقق مما إذا كان شيء ما صحيحًا أم لا، يجب التحقق تجريبياً مما إذا كانت الحقيقة المذكورة تتحقق أم لا. وهذا يعني أن شرط الحقيقة والزيف يفترض هيكلًا موضوعيًا للعالم.

رفض هوركهايمر وأتباعه مفهوم الموضوعية في المعرفة مشيرين، من بين أمور أخرى، إلى حقيقة أن موضوع المعرفة نفسه منغرس في عملية تاريخية واجتماعية: "الحقائق التي تقدمها لنا حواسنا مشكّلة اجتماعياً بطريقتين: من خلال الطابع التاريخي للشيء المُدرك ومن خلال الطابع التاريخي للعضو المُدرك". علاوة على ذلك، وبلمسة ماركسية إلى حد ما، لاحظ هوركهايمر أيضًا أن الموضوعية الظاهراتية هي خرافة لأنها تعتمد على "الظروف التكنولوجية" والأخيرة حساسة للظروف المادية للإنتاج. وهكذا تسعى النظرية النقدية إلى التخلي عن المفاهيم الساذجة لحيادية المعرفة. وبما أن

المثقفين أنفسهم ليسوا كيانات مجردة تراقب من وجهة نظر الله، لا يمكن الحصول على المعرفة إلا من منظور اجتماعي راسخ لأفراد مترابطين.

إذا تم تقييم النظرية التقليدية من خلال النظر في تأثيراتها العملية، فلا يمكن استنتاج أي نتائج عملية فعلية. في الواقع، فإن غاية المعرفة كمرآة للواقع هي في الأساس أداة نظرية تهدف إلى فصل المعرفة عن الفعل، والتكهن عن مشروع التحول الاجتماعي. أما النظرية النقدية، فتتميز بأنها طريقة تتعارض مع "تأليه" المعرفة، وهي تعتبر المعرفة شيئًا وظيفيًا إلى حد ما لنقد الأيديولوجيا والتحرر الاجتماعي. وفي ضوء هذه الغايات، تتحول المعرفة إلى نقد اجتماعي، ويترجم هذا النقد إلى فعل اجتماعي، أي إلى تحويل الواقع.

تأثرت النظرية النقدية بشكل كبير بمفهوم هيجل للجدلية للتوفيق بين التناقضات الاجتماعية والتاريخية، وكذلك بنظرية ماركس عن الاقتصاد والمجتمع وحدود "الفلسفة البرجوازية" لهيجل. في الواقع، وسعت النظرية النقدية الانتقادات الماركسية للمجتمع الرأسمالي من خلال صياغة أنماط لاستراتيجيات التحرر الاجتماعي.

بينما وجد هيجل أن العقلانية قد تصالحت أخيرًا مع الواقع مع ولادة الدولة القومية الحديثة (والتي كانت في نظره الدولة البروسية)، أصر ماركس على ضرورة قراءة تطور العقلانية عبر التاريخ من حيث صراع الطبقات. كانت المرحلة الأخيرة من هذا الصراع ستشهد تمكين البروليتاريا سياسيًا واقتصاديًا.

من جانبهم، رفض منظرو النظرية النقدية كل من الجهاز الميتافيزيقي لهيجل والجوانب الأخروية المرتبطة بنظرية ماركس. على العكس من ذلك، تحول تحليلات النظرية النقدية إلى فهم المجتمع وأشارت إلى ضرورة إنشاء أنظمة مفتوحة قائمة على أشكال راسخة من النقد الاجتماعي.

كانت نقطة البداية هي وجهة النظر الماركسية حول العلاقة بين نظام إنتاج يقابله نظام معتقدات. بالنسبة لمنظري النظرية النقدية، كان لا بد من تحليل الأيديولوجيا، التي اعتبرها ماركس قابلة للتفسير كليًا من خلال نظام إنتاج أساسي، وفقًا لجوهرها الخاص، وباعتبارها شكلاً من أشكال التعبير عن العقلانية البشرية لا يمكن اختزالها إلى عوامل اقتصادية. ثم أصبح هذا التعديل للمفاهيم الماركسية بالغ الأهمية في إعادة تفسير مفهوم الجدلية لتحليل الرأسمالية. تم تفسير الجدلية، كأسلوب للنقد الاجتماعي، على أنها نابعة من الطبيعة المتناقضة للرأسمالية كنظام استغلال. في الواقع، بناءً على هذه التناقضات المتأصلة، يُنظر إلى الرأسمالية على أنها تفتح المجال أمام شكل جماعي للملكية وسائل الإنتاج، أي الاشتراكية.

### 2. النظرية التقليدية والنقدية: الأيديولوجيا والنقد

من الآثار المفاهيمية الغنية هذه يمكن ملاحظة بعض الموضوعات الثابتة التي تميز النظرية النقدية الاجتماعية، وهي المعيارية للفلسفة الاجتماعية كشيء مميز عن علم الاجتماع الوصفي الكلاسيكي، والعقدة الأبدية حول علاقة النظرية والممارسة، وأخيرا نقد الأيديولوجيا. هذه هي المهام الأساسية التي يجب أن تنجزها النظرية النقدية الاجتماعية لكي تُعرف بأنها "ناقدة."

يعتبر فهم وانتقاد مفهوم "الأيديولوجيا" أمرا حاسما في هذا المعنى.

عند تعريف المعاني المراد إسنادها إلى مفهوم الأيديولوجيا، ضمن معناها الوصفي التجريبي "يمكن للمرء دراسة الخصائص البيولوجية وشبه البيولوجية للمجموعة" أو، بدلاً من ذلك، "السمات الثقافية أو الاجتماعية الثقافية للمجموعة". تشتمل الأيديولوجيا، بالمعنى الوصفي، على عناصر "خطابية" و "غير خطابية" على حد سواء. أي أنها بالإضافة إلى المحتويات المقترحة أو الأدائية، فإنها تشمل الإيماءات والاحتفالات وما إلى ذلك؛ كما أنها تظهر مجموعة منظمة من المعتقدات - نظرة عالمية - تتميز بمخططات مفاهيمية. يعتبر الإصدار "المستهجن" من المعنى الوصفي شكلاً من أشكال الأيديولوجيا التي يتم الحكم عليها سلبًا في ضوء خصائصها المعرفية أو الوظيفية أو الجينية. من ناحية أخرى، إذا أخذنا "الأيديولوجيا" وفقًا للمعنى الإيجابي، فإن الإشارة لا تكون إلى شيء معطى تجريبياً، بل بالأحرى إلى "رغبة"، "حقيقة ينبغي تحقيقها". تباعد النظرية النقدية نفسها عن النظريات العلمية لأنه في حين تفهم الأخيرة المعرفة كمنتج موضوعي، فإن الأولى تخدم غرض تحرر الإنسان من خلال الوعي والتأمل الذاتي.

إذا كانت مهمة النظرية النقدية الاجتماعية هي تقييم مدى عقلانية أي نظام للهيمنة الاجتماعية وفقًا لمعايير العدالة، فإن النقد الأيديولوجي له وظيفة كشف المبررات العقلانية الخاطئة للمظالم الحاضرة أو الماضية - أي الأيديولوجيا بالمعنى الواقعي والسلبي - مثل اعتقاد أن "النساء أقل شأنا من الرجال، أو السود عن البيض...". وبالتالي، يهدف النقد الأيديولوجي إلى اقتراح طرق عملية بديلة لبناء الروابط الاجتماعية.

تتحرك النظرية النقدية تحديدًا بين احتمالية الواقعية الوقائعية غير النقدية الموضوعية ومعيارية المثالية اليوتوبية، أي بين ما يسمى بـ "مشكلة النظرية / التطبيق". على سبيل المثال، يدافع ماركوز، في مقالته "فلسفة والنظرية النقدية" (1937)، عن وجهة النظر التي تتميز بها النظرية النقدية بأنها ليست فلسفة tout court ولا علمًا خالصًا، حيث تزعم أنها بدلاً من ذلك نهج تبسيطي للغاية للماركسية. تتمثل مهمة النظرية النقدية فيما يلي: توضيح العوامل الاجتماعية والسياسية التي تفسر حدود تحليل وجهة نظر فلسفية معينة، وكذلك تجاوز استخدام الخيال - الحدود الفعلية للخيال. ومن كل هذا، ينتج مفهومان للعقلانية: الأول مرتبط بالشكل السائد للسلطة وخالي من أي قوة معيارية؛ والثاني يتميز، على العكس من ذلك، بقوة تحررية تستند إلى سيناريو لم يأت بعد. هذا الاختلاف في أشكال العقلانية هو ما قدمه هابرماس لاحقًا، مع بعض التعديلات، من حيث التمييز بين العقلانية الآلية والتواصلية. في حين أن الشكل الأول من العقلانية موجه نحو فهم العلاقات بين الإنسان والبيئة على أساس الوسائل والغايات، فإن الشكل الثاني موجه نحو إخضاع الفعل البشري لاحترام معايير معينة لصلاحية الفعل. هذا الأخير يعكس بشكل مميز مبدأ كانط الأخلاقي الذي بموجبه يجب دائمًا التعامل مع البشر على أنهم "غايات في حد ذاتها" وليس مجرد "وسائل". لا تشكل النظرية النقدية وهابرماس على وجه الخصوص استثناء لهذه النظرة إلى العقلانية، حيث يرى كلاهما أن

"Ideologiekritik" ليس مجرد شكل من أشكال "النقد الأخلاقي"، ولكن كشكل من أشكال المعرفة، أي كعملية معرفية للكشف عن زيف الوعي.

يرتبط هذا النقطة ارتباطًا وثيقًا بفئة مفهومية أخرى تلعب دورًا كبيرًا في إطار النظرية النقدية، مفهوم الاهتمام وبشكل خاص التمييز بين "الاهتمامات الحقيقية" و "الاهتمامات الزائفة". كما اقترح جيس، هناك طريقتان ممكنتان لطرح هذا الفصل: "نهج المعرفة الكاملة" و "نهج الظروف المثلى" (1981، ص 48). إذا اتبع المرء الخيار الأول، ستكون النتيجة الوقوع في جانب اليوتوبيا غير النقدية. على العكس من ذلك، يُعاد تفسير "نهج الظروف المثلى"، على الأقل بالنسبة لهابرماس، من حيث "حالة الكلام المثالية" التي من خلال منحها افتراضيا لتبادل شامل للحجج، تفترض وظيفة توفير فحص معياري افتراضي على السياقات الخطابية الفعلية. ضمن هذا النموذج، يرتبط المعرفة المعرفية والتفكير النقدي الاجتماعي بشروط براغماتية - متعالية لا مفر منها هي نفسها عالميا للجميع.

يختلف طابع المعرفة العالمي هذا اختلافًا عميقًا عن سياقية أدورنو حيث يُعترف بأن المبادئ المعرفية الفردية التي تؤسس النقد الثقافي والتأمل الذاتي تختلف اختلافًا شرعيًا عبر الزمن والتاريخ. كلا النسخيتان نقديتان من حيث أنهما تظلان وفيتين لهدف تطهير الوعي الزائف من الجهل والسيطرة؛ ولكن بينما يضع هابرماس معيارًا صارمًا للصحة / عدم الصحة لنظرية الخطاب، تظل نزعة أدورنو التاريخية حساسة لدرجات العقلانية التي تعتمد على السياق. في أحد كتاباته اللاحقة عام 1969 (أعيد نشره في أدورنو 2003، ص 292 وما يليها)، يقدم أدورنو تفسيرًا قصيرًا ولكنه مكثف في ثماني أطروحات حول أهمية ورسالة النظرية النقدية. الرسالة المركزية هي أن النظرية النقدية، بينما تستند إلى الماركسية، يجب أن تتجنب التقديس والانغلاق في Weltanschauung واحدة على أهبة فقدان قدرتها "الناقدة". من خلال تفسير العقلانية كشكل من أشكال النشاط التأملي الذاتي، تمثل النظرية النقدية شكلاً معينًا من الاستقصاء العقلاني الذي يجب أن يظل قادرًا على التمييز بشكل داخلي بين الأيديولوجيا و "الروح" الهيغلية. وبالتالي، فإن مهمة النظرية النقدية لا تستنفد من خلال فهم نظري للواقع الاجتماعي؛ في الواقع، هناك ارتباط وثيق بين الفهم النقدي والفعل التحويلي: النظرية والممارسة مترابطتان.

### 3. مشكلة النظرية/التطبيق

خلال مسار تطورها التاريخي بأكمله، واجهت النظرية النقدية دائمًا مشكلة منهجية حاسمة: مشكلة "النظرية / الممارسة". قدم منظرو النظرية النقدية إجابات مختلفة على هذا اللغز، بحيث لا يمكن تجميعهم في مجموعة متجانسة من الآراء. لفهم أهمية مشكلة النظرية / الممارسة، من المفيد الرجوع إلى سؤال ديفيد هيوم "هل / يجب". ما أثبته هيوم من خلال فصل "هل" عن "يجب" هو عدم قابلية استنتاج الجمل المعيارية من الجمل الوصفية. كان هذا الفصل أساسًا لتلك النظريات الأخلاقية التي لم تعترف بالبيانات الأخلاقية كخاصية للحقيقة. بعبارة أخرى، دافع القراءات البديلة للعلاقة "هل / يجب" إما عن نهج معرفي (صحة / صلاحية الأحكام الأخلاقية) أو بدلاً من ذلك، نهج غير معرفي (لا صحة / صلاحية)، كما في حالة العاطفية.

حتى لو تميزت بالعديد من الاختلافات الداخلية، فإن ما أضافته النظرية النقدية إلى هذا النقاش هو النظر في كل من الديناميات الأنثروبولوجية وكذلك النفسية التي تحفز الجماهير وتبني الأيديولوجيات.

بقدر ما يتعلق الأمر بالمحددات الأنثروبولوجية في سد فجوة مشكلة "النظرية / الممارسة"، فمن الممكن الأخذ في الاعتبار كتاب هابرماس "المعرفة والمصلحة الإنسانية"، جمع هابرماس بين حجة ت transcendentالية وحجة أنثروبولوجية من خلال الدفاع عن وجهة النظر التي وفقًا لها يمتلك البشر مصلحة في المعرفة بقدر ما ترتبط هذه المصلحة بالحفاظ على هوية الذات. ومع ذلك، فإن الحفاظ على هوية المرء يعني تجاوز مجرد الامتثال للبقاء البيولوجي. كما يوضح هابرماس: "[...] تنبع اهتمامات الإنسان [...] من الطبيعة ومن الانقطاع الثقافي عن الطبيعة". على العكس من ذلك، فإن الحفاظ على هوية المرء يعني إيجاد القوة التحررية للمعرفة كمصلحة أساسية للبشر. في الواقع، إن تأسيس المعرفة في المجال العملي له آثار بعيدة المدى، على سبيل المثال، أن الاهتمام والمعرفة في هابرماس يجدون وحدتهما في التأمل الذاتي، أي في "المعرفة من أجل المعرفة" (هابرماس 1968).

تنطلق إجابة هابرماس على مشكلة النظرية/الممارسة من نقد النظريات غير المعرفية. إذا كان صحيحًا، كما يزعم غير المعرفيين، أن الادعاءات المعيارية مبنية على الأوامر وليس لها أي محتوى معرفي يمكن تبريره من خلال تبادل الحجج العلنية، إذن فهي لا تستطيع تقديم إجابة على الفرق بين ما هو "سلوك متقارب"، يتم تأسيسه من خلال القوة المعيارية على أساس العقوبة على سبيل المثال، وما هو بدلاً من ذلك مفهوم "اتباع قاعدة صالحة". في الحالة الأخيرة، يبدو أن هناك حاجة إلى طبقة إضافية من التبرير، وهي عملية يمكن من خلالها تعريف قاعدة على أنها صالحة. يتم تصور هذه العملية من قبل هابرماس على أنها إجراء افتراضي لتبادل الحجج الخطابية. يهدف هذا الإجراء إلى تبرير تلك المصالح القابلة للتعميم والتي يجب أن تُطاع لأنها تجتاز اختبار الصحة الأخلاقية.

لإجابة هابرماس على سؤال الوجود/المُقام عليه عدة تداعيات مهمة. أحد الآثار، وربما أهمها، هو نقد الوضعية والوضع المعرفي للمعرفة. وبناءً على افتراضات هابرماس، لا يمكن أن تكون هناك معرفة موضوعية، كما يزعم الوضعيون، منفصلة عن أشكال التفاهم بين الذاتية. وبما أن المعرفة جزء لا يتجزأ من خدمة المصالح الإنسانية، فإنه لا يمكن اعتبارها محايدة قيميا ومستقلة موضوعيا.

يأتي خط تفكير آخر حول مشكلة النظرية/الممارسة من التحليل النفسي حيث تم الحفاظ على فصل صارم بين "الوجود" و "المُقام عليه" وتم كشف النقاب عن "المُقامات عليه" الزائفة من خلال توضيح الآليات النفسية التي تشكل الرغبات. وبناءً على ذلك، أشار منظرو النظرية النقدية مثل فروم إلى مفاهيم فرويد عن اللاوعي التي ساهمت في تعريف الأيديولوجيات من حيث "الإشباعات البديلة". مثل التحليل النفسي مكونًا قويًا للغاية داخل بحوث مدرسة فرانكفورت لدرجة أن أدورنو في مقالته "النظرية الفرويدية ونمط الدعاية الفاشية" (1951) حلل العلاقة التي ربطها فروم بين السادية والمازوخية والفاشية. لاحظ أدورنو كيف يمكن رسم موازاة بين فقدان الثقة بالنفس والتقدير في السيطرة الهرمية، من ناحية، والتعويض من خلال الثقة بالنفس التي يمكن استعادتها في أشكال

نشطة من السيطرة، من ناحية أخرى. ومع ذلك، فإن مثل هذه الآليات السادية المازوخية ليست خاصة بالفاشية فقط. كما لاحظ أدورنو، فإنها تظهر مرة أخرى في ثياب مختلفة في الصناعة الثقافية الحديثة من خلال استهلاك ما يسمى بـ "السلع الثقافية".

على الرغم من المناقشات السابقة، فإن أعظم دور فلسفي للتحليل النفسي داخل مدرسة فرانكفورت تجسد في فكر ماركوز. في حالته، أصبحت المشكلة المركزية هي تفسير الاهتمام بالجذور النسبية للأيديولوجيا الرأسمالية. كيف يمكن للمرء أن يقدم سردًا لمصالح الطبقات بعد انهيار الطبقات؟ كيف يمكن صياغة معايير التمييز بين الاهتمامات الحقيقية والزائفة بناءً على الأفكار التي يوفرها التحليل النفسي؟ اعتمد ماركوز في طريقته على إعادة النظر في نظرية فرويد حول الحاجات الغريزية. وعلى عكس توترات فرويد بين الطبيعة والثقافة وتشكيل فرُوم الاجتماعي الكامل للغرائز الطبيعية، دافع ماركوز عن منظور ثالث - وسطي - حيث تعتبر الغرائز مشكلة جزئية فقط من قبل العلاقات الاجتماعية. من خلال هذا الحل، تجاوز ماركوز التناقض الصارم بين العقلانية البيولوجية والتاريخية الذي كان يمنع حل مشكلة النظرية/الممارسة. لقد فعل ذلك من خلال استدعاء إفناء الطاقة الجنسية للفرد التي تكمن في أساس المجتمع المنظم واستدعاء، بدوره، السيناريو النموذجي للإشباع الكامل للمتعة. اعتبر ماركوز الخيال كطريقة لتحقيق المصالحة الفردية مع الواقع الاجتماعي: مصالحة مع ذلك، مع وجود توتر أساسي لم يتم حله. تصور ماركوز تجاوز مثل هذه التوترات من خلال إضفاء الطابع الجمالي على الغرائز الأساسية التي يحررها عمل الخيال. كانت مشكلة تعقل ماركوز للغرائز الأساسية أنه بالاعتماد بشكل مفرط على البيولوجيا البشرية، أصبح من المستحيل التمييز بين حقيقة وزيف الاحتياجات التي تعتمد اجتماعيا.

**قائمة المراجع (المحاضرة الرابعة):**


1. Beauvoir, S. de (1949). The second sex. New York: Vintage Books.
2. Butler, J. (2004). Undoing gender. New York: Routledge.
3. Crawford, K., & Mies, M. (Eds.). (2018). The Social Media Reader. New York: Routledge.
4. Fanon, F. (1961). The wretched of the earth. New York: Grove Press.
5. Foucault, M. (1976). The history of sexuality. New York: Vintage Books.
6. Foucault, M. (1977). Discipline and punish: The fabrication of the prison. New York: Vintage Books.
7. Honneth, A. (2001). Critical theory. Princeton, NJ: Princeton University Press.
8. Horkheimer, M., & Adorno, T. W. (1944). Dialectic of enlightenment. New York: Continuum.
9. Jay, M. (1973). The Frankfurt School. Ithaca, NY: Cornell University Press.
10. Said, E. (1978). Orientalism. New York: Vintage Books.

الدراسات الثقافية ـــــــ